

300 عام على ولادة صاحب «العقد الاجتماعي»

جان جاك روسو المسكون بفكرة العدل والمساواة

يحتفي مثقفو العالم هذه الأيام بمرور 300 عام على ولادة الفيلسوف والأديب ورائد علم الأنثروبولوجيا جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau ، وهو صاحب نتاج فلسفي وفكري لم يخفت بريقه، ولا يزال أثره ماثلاً في مجالات السياسة والتعليم والأدب.

أوراس زيباوي *

لا يمكن أن ينهض على أساس العبودية، «فالعبيد المقيدون بالأغلال يخسرون كل شيء، بما في ذلك الرغبة في الخروج من القيود». كما يرى روسو أن البشر يعيشون في حالة صراع دائم، ولكي يتمكنوا من الاستمرار، فعليهم أن يتحدوا ويتضامنوا في ما بينهم. ويلاحظ أن كل شرعية سياسية إنما تنبني على الجماعة والإرادة العامة. ومن الأفضل، بالنسبة إليه، أن يتوصل الناس إلى سنّ عقد بينهم يتخلى فيه الفرد عن الحرية المطلقة ليخضع لقوانين تملئها المصلحة العامة. هكذا تكون السيادة للشعب كله لا لفرد معين، فالطاغية لا يؤمن بالشعب. والتجمع هو الذي يضمن الأمن واحترام القوانين والحقوق، شريطة أن يظل الفرد مستقلاً له ذاتيته وحرية، ليصبح في نهاية المطاف تجسيدا للإنسان وللمواطن في آن واحد. وهكذا فإن أحد الأهداف الجوهرية لـ«العقد الاجتماعي» هو التأسيس لجمهورية أو لدولة يعيش الناس متساوين أحراراً في كنفها.

في كتاباته السياسية رسم روسو إذاً الخطوط العريضة للنظم التي كان يعتقد أنها ضرورية لإقامة ديمقراطية يشارك فيها جميع المواطنين. من هنا يُعد «العقد الاجتماعي» محطة أساسية في تاريخ الأفكار السياسية. ولقد استوحته منه الثورة الفرنسية، واستلهم أفكاره إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي صيغ عام 1789. وإذا كان قد جرى الاعتماد عليه بهذه الصورة، فلأنه نقض الأفكار الجاهزة، واحتوى على أفكار مناهضة للظلم والعبودية، وللنظام السياسي والاجتماعي القائم، بالإضافة إلى انتصاره للحرية، وهو القائل: «أن يتخلى الإنسان عن حريته معناه أنه يتخلى عن إنسانيته». لقد قام المشروع الفكري لروسو على نقض الأفكار والأساطير التي كانت سائدة في زمانه، ونسف الأيديولوجيات المبنية على الخرافات، وليس على العلم والمنطق. وهذا ما جعل بعضهم يرى أن مشروعه هو، في المقام الأول، مشروع هدم. لكنه الهدم بما هو لحظة بناء جديد، بحسب مقولة الفيلسوف هايدجر.

لقد أخضع روسو كل شيء للفكر النقدي انطلاقاً من مبدأ أن كل شيء قابل للنقد وإعادة النظر، وذلك من أجل الخروج من الأفكار المسبقة. وهذا ما اختصره نيتشه في القرن التاسع عشر بقوله «إن اليقين سجن». ويقتضي هذا المنطق الكفّ عن سياسة التمويه واعتقال إمكانات العقل، من أجل توفير الظروف الملائمة للتقدم. هكذا يمكن النظر اليوم إلى أطروحات بعض المفكرين الغربيين الذين استلهموا أفكار فلاسفة عصر الأنوار، ومن بينهم روسو، رائد التنظير للديمقراطية، المناادي بإرساء التجمع البشري على أسس إنسانية تأخذ في الاعتبار أهمية العدل والمساواة والأخوة والتضامن.

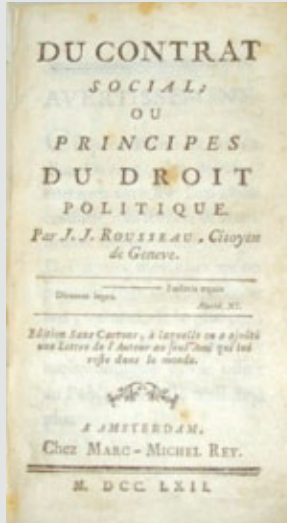
من جانب آخر، تتراوح المواقف من روسو، منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم، بين مؤيد لأفكاره، ومعارض لها، أو بين مؤيد لبعض أفكاره، ومعارض لبعضها الآخر. لكن هذا الواقع لا ينفي أهمية الموقع الذي احتله في عصره، حتى إن الفيلسوف الفرنسي ديديو، وهو من منتقديه، طلب منه المشاركة في الكتابة في موسوعته العلمية الشهيرة. أضف إلى ذلك أن كثيرين من فلاسفة القرن العشرين ومفكره

قلة من الكتاب والمفكرين لمعت كما لمع روسو، من خلال أعماله وشخصه على السواء، لثلاثة قرون متواصلة. وقد ولد في جنيف عام 1712 حيث أمضى الست عشرة سنة الأولى من حياته. كانت عائلته من أصول فرنسية، واستقرت في جنيف عام 1549 هرباً من الاضطهاد الديني لحق بالبروتستانت. انتقل من سويسرا إلى فرنسا، حيث أقام في منطقتي الرون ألب والواز، وعاش روسو متنقلاً من منطقة إلى أخرى، ولم يعرف الاستقرار في مكان واحد طوال حياته. عانى منذ ولادته العديد من الأزمات الصحية والنفسية، فلقد توفيت والدته وهي تلده، ثم تخلى عنه والده وهو في العاشرة من عمره. عن موت والدته قال: «والدتي ماتت من أجلي، وولادتي كانت أولى المآسي التي لحقت بي».

بين الأدب والفكر السياسي

تتعدد اهتمامات روسو وأنواع الكتابة التي مارسها خلال حياته، من الموسيقى والأدب والمسرح، إلى الفكر والفلسفة والسيرة الذاتية، خصوصاً في «الاعترافات» (1765-1770)، فالاهتمام بالشأن التربوي الذي يطالنا بشكل خاص في كتابه «إميل، أو ما يتعلّق بالثريّة» (1762)، الذي يرسم فيه المسار الذي مرّت به طاقات الإنسان الواحد الفرد أيضاً. في روايته «إيلوبيز الجديدة» التي صدرت عام 1761 يعد روسو أحد رواد الأدب الرومانسي، وقد ضمّنها موافقه من الحب والطبيعة والقيم الأخلاقية. وكشفت هذه الرواية، مثل نصوص أخرى كثيرة، عن علاقته بالطبيعة، وكان من عشاقها الكبار، فالطبيعة كانت ملجأً له وعزاء. وقد دعا في كتاباته إلى العودة إليها، حتى يكتسب الإنسان فيها خبراته بنفسه. «أحلام المنتزه الوحيد» كان محصلة تجواله في الطبيعة واهتمامه بعلم النبات على اختلاف أنواعه. وقد كتب الحلم السابع والأخير منها عام 1777، أي قبل سنة واحدة من وفاته التي حصلت من دون أن ينهي الكتاب. بل يذهب بعض الباحثين إلى القول إن افتتانه بالطبيعة ألهاه عن الهدف الأساسي لمشروعه هذا: كتابة سيرة حياة «إنسان وحيد على الأرض كما لو أنه في كوكب آخر غريب». لكن ذلك لم يمنعه من تبجيل الطبيعة، ورؤيته أن الاقتراب منها «يخفف من مشاعر الغم والحزن».

في فكره السياسي، حدد روسو الخطوط العريضة للنظم التي هيأت للديمقراطية، كما أرسى فكرة المواطن الفرد القادر على المشاركة في بناء مجتمع ديمقراطي، فكان بذلك أحد الفلاسفة الذين مهدت أفكارهم للثورة الفرنسية. ففي كتابه «خطاب حول منشأ عدم المساواة بين البشر وأسس» نقد العبودية والملكية الخاصة بصفتها من أسباب الظلم وعدم المساواة. وكان قد استشرّف المستقبل بقوله: «إننا نقترب من عصر الثورات». تشكل أفكار روسو السياسية، كما تجلت بالأخص في كتابه «العقد الاجتماعي» الذي صدر عام 1762، علامة بارزة في تاريخ الفلسفة السياسية، وقد استلهمه بعبارة «الإنسان ولد حراً وهو مقيد بالسلاسل». أراد أن يقول إن فئة من البشر تسيطر على فئة أخرى، وإن الإنسان عبد لنواذعه ولأهوائه. في هذا الإطار أيضاً، يرى أن القوة لا يمكنها أن تؤسس للحقوق، وأن النظام السياسي



وضع روسو أساس المجتمع والسياسة الديمقراطية: الشرعية تأتي من الشعب، لكنه فتح، فيه الوقت نفسه طريقاً محفوفة بالمخاطر من خلال تحديده لمفهوم «الإرادة العامة» الاستبدادي



يعدّونه من أوائل من درس العلاقات الاجتماعية بين البشر، وأسس لفكر سياسي جديد، حتى لو رأى عدد من هؤلاء أن بعض مناحي فكره، ولا سيّما ما يرتبط منها بحكم الجماعة، قد يفتح الباب أمام الاستبداد، ويسوغ اللجوء إليه. غير أنه، على الرغم من مضيّ ثلاثة قرون على ولادته، لا يزال يثير اهتمام القراء من مختلف الأجيال، وهو من أكثر الذين كتبوا باللغة الفرنسية شهرةً في الخارج. ولا يزال نتاجه، الفكري منه بالأخص، رائجاً على نطاق واسع بين الأجيال الجديدة، فقد بيعت من كتابه «العقد الاجتماعي» (عن دار «فلاماريون» الباريسية وحدها) 60 ألف نسخة عام 2009، كما بيع في العام نفسه 30 ألفاً من كتاب «خطاب حول منشأ عدم المساواة بين البشر وأسسه».

روسو والعالم العربي

ولئن كان روسو لا يحضر بقوة في المشهد الفكري في العالم العربي، قياساً بدول أخرى، شرقاً وغرباً، فإن الاهتمام به وبأفكاره بدأ جلياً منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين من بعض المفكرين الذين انتسحوا على الثقافة الفرنسية، أو أقاموا في فرنسا، وفي مقدمتهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ولاحقاً طه حسين، وبعض الذين شغلهم التفكير في السلطة وطبيعة الحكم، وفي الهوية والحداثة. ومن المعروف أن رفاة الطهطاوي، الذي ذهب إلى فرنسا ضمن بعثة علمية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجم، أو أشرف بنفسه على نقل «العقد الاجتماعي» لروسو، وجزء من «القاموس الفلسفي» لفولتير، و«روح الشرائع» لمونتسكيو،

ما مكانة روسو في المشهد الفلسفي منذ عصر الأنوار حتى اليوم؟

■ ينتمي روسو إلى عصر الأنوار، غير أننا نخطئ إذا عددناه واحداً من فلاسفة الأنوار. صحيح أنه شارك أولئك الفلاسفة في الرغبة في إعادة ما سمّاه «العقد الاجتماعي»، وكان رائداً في ذلك، وله أتباع لدى كبار صانعي الثورة الفرنسية، خصوصاً روبسبير، لكن الصحيح كذلك أنه كان يقف في الطرف المقابل لتيارات فكر الأنوار في الكثير من المجالات، ومنها كرهه للعلوم والفنون. وهذا ما دفع كلاً من ديدرو وفولتير (ولكلّ منهما أسبابه أيضاً) إلى التعبير عن خلافهما معه بصورة جلية. بالنسبة إلى مسألة تمجيد الطبيعة، اتهمه فولتير بأنه أراد أن يسيّر الإنسان على أربع أرجل، وهو يأكل عشب الأرض. وروسو، الذي اختار عن قصد، الابتعاد عن البشر كان قد تبنت عبارة ديدرو القائلة إن «الشربير وحده فقط هو الذي يعيش بمفرده».

وما خصائص فكره السياسي؟ وبماذا يتميز هذا الفكر مقارنةً بالفلاسفة الآخرين، قدامى ومعاصرين؟

■ ما يميزه هو فكرة العقد الاجتماعي، وكانت آنذاك فكرة ثورية تقول إن الشعب مصدر كل سيادة. وهنا تكمن القطيعة الكبرى. لستُ فيلسوفة، لكنني لم أقطع يوماً عن قراءة روسو، وأشعر حياله بإعجاب كبير، ولا سيما بالنسبة إلى نتاجه الأدبي: «الاعترافات»، و«أحلام المنتزه الوحيد». لكنني أرفض الكثير من أطروحاته، وما يتعلق منها بالتربية خصوصاً. إنني أرفض وبشكل عام نظرية التربية «الطبيعية» التي انطلقت منها جميع البدع التي تطالعنا في المجال التربوي اليوم. أما بالنسبة إلى تربية البنات، فيتمنى روسو لو أن صوغي، التي ستصبح لاحقاً زوجة إيميل، تمي مواهبها «لتفيد زوجها تماماً، كما تستعد فتاة البانية شابة لدخول حريم أصفهان». («إيميل»، الكتاب الخامس).

كان روسو نقيض الفيلسوف والسياسي الفرنسي كوندورسي (1743-1794)



الكاتبة الفرنسية دانيال سالناف:

روسو معاصرنا بتمزقه وقلقه

دانييل سالناف Danièle Sallenave عضو الأكاديمية الفرنسية، حائزة جائزة «رينودو» عن كتابها «أبواب غوبيو»، والجائزة الأدبية الكبرى للأكاديمية الفرنسية. وقد وضعت ترجمات عدة أبرزها لنتاج المخرج السينمائي الإيطالي بيار باولو بازوليني. وفضلاً عن هذا وذاك، هي من الكتاب المعروفين بالتعمق في نتاج روسو، ومن عشاق نتاجه الأدبي بالأخص، كما لا تفتأ تقرؤه باستمرار. في الحوار التالي، الذي أجرته معها «أفاق المستقبل»، تنظر سالناف نظرة نقدية إلى فكر روسو، كما تشير إلى معنى الحداثة في فكره السياسي المركب والمتشعب وما بقي من تأثيره حتى زمننا هذا. وهنا الحوار:

المناخ السياسي والاجتماعي والثقافي السائد منذ عقود. إن الالتفات إلى تجربة روسو والمرحلة التي جاء فيها، أي «عصر الأنوار»، هو اليوم مسألة ضرورية في العالم العربي الذي يعيش مرحلة تحول كبرى تحتاج إلى تحكيم العقل، والقراءة الموضوعية للتاريخ، وتفعيل الحس النقدي، بما يساعد المجتمعات العربية على إعادة التفكير في نظامها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وإرساء أسس مجتمع يحترم أبناءه ويؤمن لهم الحرية والعدالة والمساواة.

□

* كاتبة إعلامية مقيمة في باريس

وغيرها من الكتب الفكرية المؤسسة، إلى لغة الضاد. ثم أعاد عادل زعير، في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي، ترجمة «العقد الاجتماعي» في كتاب صدر عن «دار المعارف» في مصر. واليوم انتهى المؤرخ والباحث المغربي عبد السلام شدادي من إنجاز ترجمة جديدة تشتمل على مجمل كتابات الفكر السياسي لروسو. وسبق لشدادي أن ترجم «مقدمة ابن خلدون» إلى الفرنسية مع دراسة نقدية لها، وقد صدرت هذه الترجمة عن دار «غاليمار» الباريسية ضمن سلسلة «لابلياد» العريقة. من ناحية أخرى، تبقى الدراسات الجامعية التي تتناول روسو قليلة جداً في العالم العربي، فضلاً عن أن الأطروحات التي تقدم بها بعض المفكرين العرب، التي تدور في فلك المسائل التي ناقشها صاحب «العقد الاجتماعي» لا تزال محدودة ومتعثرة أمام صعوبة اختراق

المراجع:

- ROUSSEAU, Jean-Jacques, CEuvres complètes, t. I, Les Confessions — Autres textes autobiographiques, édition publiée sous la direction de Bernard Gagnebin et Marcel Raymond, Paris, Gallimard, La Pléiade, 1959.
- ROUSSEAU, Jean-Jacques, CEuvres complètes, t. II, La Nouvelle Héloïse — Théâtre — Poésies — Essais littéraires, édition publiée sous la direction de Bernard Gagnebin et Marcel Raymond, Paris, Gallimard, La Pléiade, 1964.
- ROUSSEAU, Jean-Jacques, CEuvres complètes, t. III, Du contrat social — Écrits politiques, édition publiée sous la direction de Bernard Gagnebin et Marcel Raymond Fabre, Paris, Gallimard, La Pléiade, 1964.
- ROUSSEAU, Jean-Jacques, CEuvres complètes, t. IV, Émile — Éducation — Morale — Botanique, édition publiée sous la direction de Bernard Gagnebin et Marcel Raymond, Paris, Gallimard, La Pléiade, 1969.
- ALTHUSSER, Louis, «Sur le Contrat social. Les Décalages», Les Cahiers pour l'analyse. L'impensé de Jean-Jacques Rousseau, n° 8, 1967, pp. 5-42.
- Annales de la Société Jean-Jacques Rousseau, «Rousseau visité, Rousseau visiteur: les dernières années», Actes du Colloque de Genève (21-22 juin 1996) rassemblés et édités par Berchtold, Jacques et Porret, Michel, vol. XLII, Genève, Droz, 1999.
- BARTHES Roland, «D'eux à nous», CEuvres complètes, t. III, 1974-1980, 1978, Paris, Seuil, 1995, pp. 822-823.
- DERRIDA, Jacques, Marges de la philosophie, Paris, Minuit, coll. «Critique», 1972.

الطبيعية إلى الحالة المدنية؟

■ في أوروبا حيث اضطرت الفكر اليوناني -على الرغم من عصر النهضة- إلى أن يترك مكانه للتوحيد المسيحي، كانت فكرة الخطيئة الأصلية وضرورة التوبة تهيمن على مسألة الحالة الطبيعية. ولقد عارض روسو هذا التيار، فالإنسان بالنسبة إليه طيب بطبيعته، أما الشر فيأتي من كونه يعيش داخل المجتمع. أفضل المؤسسات هي التي تعرف كيف تحافظ على ما سماه المفكر جان ستاروبنسكي «الشفافية» في العلاقات بين البشر. روسو ترعبه فكرة الديمقراطية التمثيلية، وهو يفضل الديمقراطية المباشرة، ويفضل حياة مدنية بسيطة تتخللها أعياد واحتفالات جمهورية وشعبية تنصهر فيها مجموعات البشر.

إلى أي مدى أسهم «العقد الاجتماعي» في التأسيس للدولة الحديثة،

وللعلاقة بين الفرد والمجتمع؟

■ قدم روسو تصوراً لمفهوم الدولة الحديثة، ووضع أساس المجتمع والسياسة الديمقراطيةين: الشرعية تأتي من الشعب. لكنه فتح، في الوقت نفسه، طريقاً محفوفة بالمخاطر من خلال تحديده لمفهوم «الإرادة العامة»، حيث لا يوجد مكان للنقد والمعارضة والحرية الفردية. معارضة «الإرادة العامة» ليست مستحيلة فقط (لا يمكن أن نعترض على أنفسنا)، لكنها تبلغ حدّ الفاجعة لأنها تبعث عن المجتمع. إن فكرة «الإرادة العامة» هي فكرة استبدادية.

ما هدف القوانين ودورها في فكر روسو السياسي؟

■ مع روسو، ومنذ روسو، تتحدّد الديمقراطية بهذه العبارة التي أطلقها الكاهن الكاثوليكي لاقوردير Lacordaire عام 1848: «بين القوي والضعيف، بين الغني والفقير، بين السيد والعبد، الحرية هي التي تضطهد، والقانون هو الذي يحرّر». وإذا لم يحكم القانون، فإن القوة هي التي تحكم. وهذا الخيار يطالغنا في أماكن عدّة من العالم.

الذي تمنى، عند بداية الثورة، أن تمنح المرأة حق الانتخاب. وكان كوندورسي يتساءل: لماذا يحول «عارض مؤقت» دون مشاركة المرأة في حياة المدينة؟! مع ذلك، أشعر بالقرب من روسو في ما يتعلّق بمقاربتة للحياة وعلاقته بالعالم، حتى لو كنتُ أخالفه الرأي في أن الإنسان طيب بطبيعته، لكن المجتمع هو المسؤول عن فساد. إلا أن هذا لا يعني أنني أوافق على أن الإنسان سيئ بطبيعته. أعتقد أنه لا توجد طبيعة إنسانية، بل يوجد شرط إنساني.

والحدثة، كيف تتجسد في فكره؟ وما الذي يحدد منحها في نتاجه؟

■ لا أعرف ما الفكر الحديث. وإذا أخذنا معنى هذه الكلمة بما يعني الزمن الراهن، فإنني أقول، مرة أخرى أيضاً، إن ما يمكن أن نَصّفه بالحدثة هو «العقد الاجتماعي»، وتحديده لفكرة الشعب السيد. أضيف أن ما هو «حديث» في نظري أيضاً هو الإحساس بالألم الذي طبع شخص روسو ونتاجه. وهو ما كان لينضوي تحت لواء التقدم الذي يؤمن سعادة الإنسان من خلال التحول الاجتماعي، بل بقي متعلقاً بعالم قائم على اتحاد القلوب والتبادل الصامت بينها، وهو عالم، في جزء منه، متوهم. غير أن روسو كان على صواب في رفضه التام لكل أشكال عدم المساواة.

من أجل هذه الأسباب كلها، كان لا بد لهذا المفكر من أن يكون غير محتمل. إنه مملوء بالتناقضات، ولذلك فهو حديث، ذلك أن إنسان اليوم، الذي اجتاز هذه النسبة الكبيرة من الخيالات، وعاش الآمال التي كانت معقودة على الأنوار، هو نفسه أيضاً مملوء بالتناقضات، وغير قادر على معرفة إذا ما كان يريد الحرية فعلاً مع ما يرافقتها من اقتلاع وشعور بالوحدة، أو أن يظل في المقام الأول مطمئناً، متكئاً على دفء المجموعة والمجتمع. ما يجعل روسو معاصراً لنا هو التمزق الذي عاشه مع نفسه، والقلق الذي رافقه طوال حياته.

ما الجديد الذي قدمه روسو بالنسبة إلى فكرة الانتقال من الحالة